جوامع مدينة تونس في العهد العثماني
دراسة تاريخية وفنية ومعمارية

أ.د. محمد الباجي بن مامي*

مرت مدينة تونس بعدة فترات ، فامتازت كل فترة منها بقدوم ممثلين لحضارات مختلفة وهكذا تنوعت مصادر التأثيرات في الناحية الفنية والمعمارية بتنوع منابعها ، واتسم كل عصر بطابعه الذي يميزه عن العصور السابقة . إلا أنه لم يوجد أي انقطاع في سلسلة الحلقات التي تربط بين مختلف هذه الحقبات التاريخية[1].

اختلف مجيء الأتراك العثمانيين اختلافاً تاماً عن الهجرات الأخرى خاصة منها الهجرة الأندلسية ، إذ أن قدومهم كان متصلاً بحضور عسكري و سياسي قوامه الجند . وقد حاول الحكام الجدد بث المذهب الحنفي عن طريق العلم ، فبدؤوا بتأسيس الجوامع والمدارس لهذا الغرض ، وأحيوا ما هرم منها ، وحبست علي المذهب المتبعين له[2] .

كما كان لتأثيرهم الفني والمعماري أهمية لا تقل عن تأثيرهم الثقافي والمذهبي ، مما أعطي صبغة جديدة لفن البلاد ومعمارها وهكذا أدي الوجود العثماني إلي ظهور خصائص واتجاهات فنية جديدة [3]ومن الأكيد أن الحديث عن كل التأثيرات التركية التي عرفتها مدينة تونس، سيحملنا للحديث علي أربعة قرون متواصلة من الحضور العثماني ببلادنا ، لذلك سنهتم في هذا البحث بالعمارة الدينية المتمثلة في الجوامع ، التي تعتبر إحدى العناصر الهامة لهذا الحضور والتي تعطينا فكرة واضحة علي التأثيرات التركية بمدينة تونس .

بالطبع احتج الدايات الأوائل الذين حكموا البلاد إلي إيجاد جوامع خطبة تتسع للجنود العثمانيين الذين استقروا في تونس بداية من سنة 1574م ، وتفيدنا المصادر بأن عددهم كان آنذاك حوالي أربعة آلاف[4]. لهذا الغرض رمم الجامع الموحدي بالقصبة سنة 992 هـ / 1584 م . كما رمم جامع بني خرسان المعروف بجامع القصر سنة 1008 هـ / 1599م [5] . وأدخل العثمانيين بعض العناصر الجديدة علي هذين المعلمين ، من ذلك كسوهم محراب جامع القصبة بالرخام وإضافة المنبر المبني ، وحبس الجامعان علي المذهب الحنفي مما سمح لهؤلاء الجنود من أداء مناسكهم في جوامع خاصة بهم .

بلغ عدد الجوامع المؤسسة بمدينة تونس خلال الفترة العثمانية خمسة ، أسس حاكم البلاد يوسف داي أولها وهو الجامع المشهور باسمه والذي كان يعرف أيضاً بجامع البشامقية[6] ، وتم بناؤه سنة 1021 هـ / 1612 م .

---

* أستاذ ورئيس قسم المسح ودراسة الحضارة الإسلامية بالمعهد الوطني للتراث ـ وزارة الثقافة ـ تونس

[1] H.H Abdelwahab, Coup d, oeil general sur les apports ethniques etrangers en Tunisie , in Rev. Tun . XXIV , (1917) pp305 – 316 et 371 – 379 .

[2] وهو ما حصل للمدرسة الشماعية والمدرسة العنقية ، كما تم ترميم جامع القصبة وجامع القصر وذلك في أواخر القرن x ه /XVI م وحبس كل منهما علي المذهب الحنفي .

[3] Golvin, E SSAI Sur l, architecture religieuse musulmane, p. 59.

[4] ـ أحمد بن أبي الضياف : " اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان " ، الجزء الثاني ، ص 26 تونس 1963 .

[5] ـ الباجي بن مامي " جامع يوسف داي أول المعالم العثمانية بالبلاد التونسية "، مجلة أفريقية ، تونس – 1998، عدد 16، ص 107.

[6] ـالبشامقية هم صنعة البشمق ، وهو الحذاء الذي يلبسه الفقهاء ورجال الدين ، كما لبست النسوة هذا النوع من الأحذية ، وحرف مصطلح البشمق من الكلمة التركية " البشماق " الذي ورد مفهومه في كتاب محمد بن الخواجة " معالم التوحيد " . ص 177.

أما ثاني الجوامع ، فهو الذي أسسه الباي حمودة باشا المرادي سنة 1066 هـ/ 1655 م .
وثالث الجوامع زمنياً هو جامع محمد باي المرادي المعروف بجامع سيدي محرز الذي بدأ هذا الباي في بنائه سنة 1104 هـ / 1692 م ، لكنه توفي قبل إتمامه فأكمله أخوه رمضان باي سنة 1110 هـ / 1699 م ، قبل بناء المئذنة .
كما بني حسين بن علي مؤسس الدولة الحسينية الجامع الرابع سنة 1139 هـ / 1727 م .
وآخر هذه الجوامع هو جامع الوزير يوسف صاحب الطابع الذي انتهي من بنائه سنة 1230 هـ / 1814 م .

جامع يوسف داي:-

أسس إذن يوسف داي أول الجوامع العثمانية بالبلاد التونسية ، وهو الذي تولي الحكم انطلاقاً من سنة 1019 هـ / 1610 م [7]. طالت مدة هذا الداي في الحكم ، إذ بلغت حوالي ثماني وعشرين سنة ، استطاع أن يوجه عنايته خلالها إلي إعطاء نفس جديد للحياة الاقتصادية والعلمية بعد فترة الركود والتراجع التي شهدتها البلاد خلال القرن X هـ / XVI م ، وقد تمكن من ذلك بفضل عدة عوامل من بينها خاصة قدوم نخبة من كبار التجار وأصحاب الحرف الأندلسيين الذين توافدوا علي تونس في عدد كبير قبل توليه الحكم بثلاث سنين [8] وقد حرص علي إيوائهم وتسهيل ادماجهم في الحياة الاقتصادية للبلاد .
هذا ولم يكن إنجاز الجامع نتيجة لتلك الظروف الاقتصادية السانحة ، إذ تم بناؤه بعد سنة فقط بعد تولي هذا الداي الحكم بتونس ، بل يغلب علي الظن أنه كان نتيجة لضغوط سياسية واجتماعية ، ذلك أنه قد مر علي تواجد العثمانيين المتبعين للمذهب الحنفي بتونس أكثر من ثلث قرن لم يحصل خلالها تشييد ولو جامع واحد ، بل اقتصر الولاة كما أشرنا إليه علي تحويل جامعين مالكيين إلي المذهب الحنفي . ولا شك أن الحاجة كانت في أوائل عهد يوسف داي ملحة إلي حد أن الداي المذكور ، أسرع إثر توليه الحكم للأمر ببناء هذا الجامع . فلم تدم الأشغال أكثر من إحدى عشر شهراً (من شوال 1020 هـ / ديسمبر 1611 م - جانفي 1612 م إلي رمضان 1021هـ / 1612 م) مثلما تدل علي ذلك النقيشة ذات الخط النسخي الموجودة بالجامع[9].
هذا ولا يخفي أنه كان للجند دور أساسي في إدارة البلاد ، وحتى في تسمية الحكام عليها ، ولربما قد ازداد عددهم بصفة جعلت من المتأكد إضافة جامع جديد ، لم يفتأ أن أصبح جامع الخطبة الحادية عشر في مدينة تونس [10] فيكون الداي يوسف قد جلب بهذا العمل عطف وتأييد هؤلاء القوم الذين كانوا دوماً مصدر شغب وفتنة .
وقام ببناء هذا المعلم المهندس ابن غالب الأندلسي الأصل [11] لكن بغض الطرف عن هذا الجامع ، شيد يوسف داي مدرسة [12] مجاورة لـــه

---

[7] - حسين خوجة : " ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان " ، ص 92.

8- H.H Abdelwahab, Coup d, oeil general sur les apports ethniques etrangers en Tunisie , dans Etudes sur les Moriscos Andalous en Tunisie P. 16 , ET J . D. Latham : contribution a l , emigration andalouse et sa place dans l, histoire de la TUNISIE , P. 21.

[9] - يعتبر الجامع الأعظم بتونس أثري المعالم الدينية من حيث وجود نقائش تمدنا بتاريخ المعلم علي مر العصور ، لكننا نلاحظ أن النقائش الموجودة في الجوامع الراجعة للفترة العثمانية ليست بالعديدة ولا يمكن أن تعرفنا بالأطوار التي مر بها كل من هذه الجوامع .

[10] - يستفاد من وقفية المؤسس أن الجامع كان في البداية مسجداً للخمس ، ثم حوله مؤسسه جامعاً للخطبة في سنة 1041 هـ / 1631 م ورتب به إماماً وراوياً لصحيح البخاري ، ورتب فيه خمسة مؤذنين من أبناء الأتراك واثني عشر من أهل البلاد . وهذا حسب وثيقة حبس الجامع الموجودة بأرشيف الدولة . كارتون " د".

[11] - لهذا المهندس أهمية بالغة في حركة البناء والتعمير خلال النصف الأول من القرن XI هـ /XVII م ، ولدينا نقيشة بالجامع الأعظم (جامع الزيتونة) تدل علي قيامه بأعمال بهذا الجامع ، كما أنه أشرف علي بناء المدرسة الموجودة بمقام السيد الصاحب بالقيروان .

وميضأة فوقها مقهى [13] وكذلك كتاباً ، وأضاف إليها سوق البشامقية الملاصقة للجامع ، وسوق الترك وسوق البركة ، وهكذا كونت في جملتها كتلة متكاملة ، تذكرنا " بالكولوليا " التركية .

ولما توفي يوسف داي سنة 1047 هـ / 1637م ، دفنه أبو العباس أحمد في التربة التي أقامها في مدخل الجامع بسوق البشامقية .

يقع الجامع اليوسفي في مدخل المدينة العتيقة من ناحية القصبة بنهج سيدي علي بن زياد ، ومما يجلب الانتباه أن المؤسس اختار موقع جامعه علي مقربة من الجامع الأعظم ، ويمكن تفسير هذه العملية بأن الجند الذين بني من أجلهم هذا الجامع كانوا يقطنون بقرب من هذا الموقع ، فإضافة إلي وجود العديد منهم بقلعة القصبة ، فإن البعض الآخر كان يقطن في المكان الذي تحتله حالياً المدرسة المرادية [14] كما أنه من الممكن أن وجود جامع محبس علي المذهب الحنفي بقرب الجامع الأعظم ساهم في جلب عدد من كبار القوم الذين كانوا يقطنون في هذا الحي للاستماع لدروس الشيوخ المتفقهين علي مذهب الإمام أبي حنيفة ، وبالتالي يعتبر هذا تقوية لصفوف المتبعين لهذا المذهب في بلاد مازال سكانها متشبثين بالمذهب المالكي .

مما يجلب الانتباه أن أول جامع أسس بالبلاد علي يد العثمانيين : ألا وهو جامع يوسف داي ، تأثر في بعض من مكوناته وفي قسم من تصميمه بالمساجد العثمانية ، وهكذا يبدو الصحن الذي يحيط ببيت الصلاة من الجهات الثلاث ـ الشرقية والشمالية والغربية ـ من المميزات النادرة التي قلما نجدها في الجوامع التونسية ، وهي في الحقيقة ظاهرة اختصت بها بعض الجوامع التركية خاصة منها جامع بيالي باشا (PIALI PACHA) الذي أسس باستنبول سنة 992 هـ / 1585 م ، وجامع ياني فاليدي (yani valide) أما بتونس فنجد نفس الشكل ، وهو المشابه لحرفU اللاتينية في ثلاثة جوامع أخرى فقط [15] وهو مالا نجده في الجوامع التي سبقت زمنياً تأسيس الجامع اليوسفي [16] ويتمثل هنا أهم الصحون الثلاثة في الصحن الشمالي ، بينما يتقدم الصحن الشرقي بمساحته المحدودة جداً ، لكنه يمتاز باحتوائه علي محراب يستعمله المصلون خلال فصل الصيف [17] .

لكن ما يجلب الانتباه هو أنه رغم بناء هذا الجامع في بداية القرن XI هـ / XVII م فقد صممت بيت الصلاة حسب النماذج المستعملة من قبل في البلاد ، فأغلب عناصرها تمثل بعض التأثيرات والتقاليد المعمارية المحلية ، وهكذا حصل اختلاف أساسي بين ما يوجد بالصحن ونمط الصومعة والتربة من جهة ، وبين العديد من عناصر بيت الصلاة من جهة أخري ، التي تم تسقيفها عن طريق أقبية متقاطعة [18] وربطت الحدارات ببعضها عن طريق عوارض خشبية . وتختلف بيت الصلاة هذه اختلافاً تاماً عما نجده بجامع محمد باي المرادي (المعروف بجامع سيدي محرز) المسقوف عن طريق القباب المعتمدة علي أربع دعامات ، بينما اعتمد سقف الجامع اليوسفي علي غابة الأعمدة التي تعودنا علي وجودها بأغلب جوامع البلاد .

---

[12] ـأدمجت هذه المدرسة خلال عهد الصادق باي في المستشفي الصادقي ، وذلك في سنة 1291 هـ / 1874 م ، لكن مازال هذا القسم علي نفس التصميم الذي كان عليه من قبل .

[13] ـ يجب أن يربط إنشاء المقاهي في ذلك العصر بالمسائل التابعة للعبادات ، وبطرق التصوف والذكر التي كانت منتشرة بكثرة في القرن XI هـ / XVII م . حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلي مقال
Kahwa, in Encyclopedie de l, Islam, T. IV PP. 469- 475.

[14] ـ وهي كانت تدعي أيضاً مدرسة التوبة ويفسر ذلك بن أبي دينار بأنها كانت " مسكناً للجند قبل بنائها، ويقع فيها الفجور ، فغير
(الباي) رسمها وجعلت لتلاوة كتاب الله والعلم " . ابن أبي دينار " المؤنس " ..ص 248 .

[15] ـ وهي جوامع : حمودة باشا المرادي ، ومحمد باي المرادي ، المؤسس كل منهما خلال النصف الثاني للقرن XI هـ / XVII م . وكذلك جامع صاحب الطابع المؤسس خلال الربع الأول للقرن XIII هـ / XIX م .

[16] ـ اعتقد ج . مارسيه أن شكل هذا الصحن قد استعمل قبل ذلك في جامع المهدية الفاطمي : إلا أن عملية الأسبار التي قام بها ليزين عند إعادة بناء الجامع ، أثبتت أن الجامع الفاطمي كان علي نمط الجوامع الأفريقية الأخرى ذات الصحن المستطيل الشكل ، الذي يتقدم بيت الصلاة في ناحيتها الشمالية ، وتحيط به الأروقة .

[17] ـوهو القاسم المشترك بين الجوامع الخمسة موضوع بحثنا هذا .

[18] ـ هي طريقة مألوفة في سقوف معالم مدينة تونس الدينية منها أو المدنية .

لبيت الصلاة هذه شكل مستطيل ، فعرضها أقل من عمقها ، إذ يساوي عرضها 6/ 7 من عمقها . ونحن نعلم أن شكل بيت الصلاة بصفة عامة يكون العرض فيه أكثر من العمق [19] وبما أننا نعثر في بيت الصلاة هذه علي كثير من المعطيات التي نجدها في الجوامع الأفريقية الأخرى ، فقد كنا ننتظر أن يمثل عرض بيت الصلاة أكثر من هذه النسبة بالمقارنة مع العمق . إلا أن الأبعاد تكاد تكون متوازية (أي شكل مربع) مثلما هو الحال بالنسبة إلي جامع سيدي محرز [20]

تتكون بيت الصلاة من تسع بلاطات ـ أهمها البلاطة الوسطي المواجهة للمحراب ـ وسبع مسكبات ، أكثرها عرضاً المسبكة الموازية لجدار القبلة ، وهكذا تكون بمعية البلاطة الوسطي ، التصميم المعروف حسب شكل T " اللاتينية " . ويتكون السقف كما لاحظنا من أقبية متقاطعة تتسم بالجمال ، وهكذا نضفي علي بيت الصلاة شيئاً من الأناقة أنقذها من المونوتونية أو الرتابة التي كان من الممكن أن تتردى فيها ، ذلك إضافة إلي القبة ذات عقود الزوايا التي تعلو المحراب [21] . بينما لا يجلب الانتباه في واجهة المحراب ، إلا المحراب نفسه والزخرفة الجصية التي تعلوه . وكسي القسم الأسفل لجوف المحراب الذي يتوسط هذه الواجهة باللوحات الرخامية ، وزخرفت الطاقية بنقوش جصية ذات تأثير أندلسي ، كم يتكون العقد الحدوي الذي يحيط بالقسم الأعلى للمحراب من فقرات رخامية متناوبة ، بيضاء وسوداء ،ويحيط به إفريز مقعر ، ويستند هذا القسم علي عضادتين يحد كل منهما من الداخل عمود رخامي يعلوه تاج من الطراز الحفصي . ونمط هذا المحراب جديد بالنسبة إلي جوامع البلاد ، فلم يكن يكسي جوف المحراب بالرخام ، ولم ينتشر هذا النمط إلا مع دخول الأتراك العثمانيين ، أما قبة المحراب فهي مرتكزة علي أربعة عقود ، مشكلة بذلك قاعدة مربعة للقبة التي تتكون من ثلاثة أقسام . ويتم الانتقال من القاعدة المربعة إلي الطابق الأوسط المثمن الشكل عن طريق أربعة عقود زوايا يحتل كل منها أحد زواياها الأربع [22] ويحد المحراب شرقاً ، باب مقصورة الإمام ، وغرباً المنبر ، وهو منبر قار بني بالحجارة وكسي بلوحات المرمر المتعددة الألوان [23] وهو يذكرنا بمنابر جامع القصبة وجامع حمودة باشا ، وجامع محمد باي المرادي والجامع الجديد ، وجامع صاحب الطابع . أما أجمل العناصر التي تحتوي عليها بيت الصلاة فهي الختمة القرآنية التي أثريت في واجهاتها الأربع بنقوش جميلة وبنقيشة تثبت تحبيسها علي الجامع سنة خمس وأربعين وألف للهجرة (1045 هـ / 1635 م) .

من بين العناصر المعمارية التي تلفت الانتباه ، المئذنة وهي أولي الصومعات المثمنة الشكل التي تم بناؤها بالبلاد ، إذ أن جميع الصومعات التي سبقتها زمنياً كانت في أغلبها ذات نمط موحدي ، ولها قاعدة مربعة الشكل ، كما أن لجامع حمودة باشا المرادي والجامع الجديد وجامع صاحب الطابع ، مآذن لها هي الأخرى نفس النمط .

اختلف المؤرخون في مصدر هذا النمط من المآذن ، فأغلبهم يرون أنها من تأثير تركي ، أو ينعتونها " بالنمط الحنفي " ويري البعض الآخر أنها من تأثير أندلسي ، ويستدل الأستاذ **ميكال دي إيبلزا (MICKEL DE EPALA)** علي ذلك بتواجد صومعة بالمرية تتشابه نوعاً ما مع هذا النوع من الصومعات التونسية ، لكن الشيء المؤكد أن المآذن المثمنة الشكل وجدت بتركيا و بمصر و ببعض المناطق التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية . و رغم أن المآذن المتواجدة بتركيا

---

[19] ـ مثلما هو الشأن بالنسبة إلي جامع عقبة بالقيروان وجامع الزيتونة والجامع الأعظم بسوسة وغيرها .

[20] ـ من المؤكد أن المهندس اضطر اضطراراً لاختيار هذا التصميم ، لضيق قطعة الأرض التي تصرف فيها لبناء المعلم . لكن من الملاحظ أن الجوامع الأخرى الراجعة إلي الفترة العثمانية ، لها نفس التصميم ، خاصة جامع حمودة باشا المرادي .

[21] ـيفسر هذا الفقر المعماري بالفترة الزمنية الوجيزة جداً التي أنجز خلالها الجامع فهي لم تسمح بإثرائه بعناصر أخري ، هذا إضافة إلي أن الأيالة التونسية لم تسترجع قواها بعد من جراء المصائب التي لحقتها خلال الحرب الأسبانية التركية التي انتهت بانتصار الأتراك سنة 981هـ / 1574 م.

[22] ـ الا أنه تواجدت قباب يتم فيها الانتقال من المربع الأسفل إلي القبة عن طريق عنصر المثلثات الكروية ، كما حصل ذلك في جامع محمد باي ، وتربة البايات وزاوية سيدي إبراهيم الرياحي هذا إضافة إلي قبة قصر دار حسين ، وغيرها .

[23] ـ هذا علي عكس المنابر التي عرفتها أفريقية في السابق وكانت منابر خشبية متحولة .

أكثر رشاقة و طولا من التي نجدها بمدينة تونس ، فمن الواضح أن هذه متأثرة بطريقة مباشرة بتلك ، و هي ربما تأثرت بصفة مباشرة بالصومعات المثمنة الشكل الموجودة ببعض المناطق سوريا و لبنان ، خاصة منها بحلب ؟ لكن نلاحظ أن الفنان التونسي قد أضفي عليها شيئاً من شخصيته و تقاليده مما أعطاها بعداً مميزاً .

من بين العناصر الأخرى الهامة : التربة ، فانطلاقاً من هذه الفترة العثمانية أصبح كل مؤسس لجامع خطبة بمدينة تونس يضيف تربة إلي الجامع ، و هو ما حصل فعلاً بجامع حمودة باشا و كذلك بالجامع الجديد و بجامع صاحب الطابع ، و قد حاول محمد باي المرادي إضافة تربة إلي جامعه إلا أنه توفي قبل إنجازها ، فدفن في تربة أبيه حمودة باشا . و مفهوم إضافة التربة إلي الجامع ، مشرقي بحت و لم يعرف لدينا خلال العهد الحفصي إلا في بعض المدارس (كمدرسة ابن تافراقين و مدرسة القائد نبيل أبو قطاية).

و قد لاحظنا بعد أن المهندس الذي أشرف علي بناء هذا المعلم أندلسي الأصل ، إلا أنه رغم ذلك فإن التأثيرات التي سيطرت علي نمط هذا المبنى فيها امتزاج بين الفن و الهندسة المعمارية المحلية و العثمانية ، لهذا نستغرب من عدم محاولة هذا المهندس استعمال الأنماط الهندسية التي تعود عليها بالأندلس ؟

و هكذا احتوى هذا الجامع رغم بساطته علي عناصر جديدة أدخلها معهم العثمانيون ، كالصحن الذي يمثل شكل Uاللاتينية ، و المئذنة المثمنة الشكل ، و المنبر القار و المكسو بالمرمر ، و كذلك التربة المضافة للجامع ، هذا إضافة إلي المحراب الخارجي الواقع في الصحن الشرقي ، و هو قاسم مشترك بين الخمسة جوامع المؤسسة خلال فترة الأتراك العثمانيين ، و هذه المعطيات تعد من الأهمية بمكان إذ تعرفنا علي عمارة الدايات الأوائل بتونس ، و علي التطور الحاصل مع قدوم الحكام الجدد للبلاد .

جامع حمودة باشا:-

أما ثاني الجوامع المؤسسة خلال هذه الفترة ، فعمارته تشابه في أغلب النقاط الجامع الأول ، و يوجد هذا الجامع وسط الأسواق المحيطة بالجامع الأعظم ، و من أهم أسباب اختيار موقعه هذا هو قربه من جامع الزيتونة إذ لا يفصل بينهما إلا بضعة أمتار ، و هو ناتج عن إرادة الحكام الجدد المتبعين للمذهب الحنفي نشر مذهبهم بين العامة ، و كانوا يعتبرون أن الحل الوحيد لنشر الحنفية هو إنشاء جوامع و مدارس تحبس علي مذهبهم ، و بما أن الزيتونة مثلت علي مر التاريخ معقل العلماء و الشيوخ المالكية ، فإن إنشاء جامع قريب منهم يحبس علي المذهب الحنفي كان يشكل في نظرهم أهم الطرق لدعم وجودهم المذهبي و بالتالي السياسي .

من أهم ما يتمكن إذن ملاحظته هو تأثر مهندس هذا الجامع بنمط جامع يوسف داي و هو ما تصفه المراجع بالنمط التركي . كما تجلب الانتباه بعض الاختلافات الجزئية بين مئذنة جامع حمودة باشا و تلك التي ذكرناها في جامع يوسف داي ، فمنارة جامع حمودة باشا أكثر رشاقة و طولاً من الأخري .

رغم احتواء هذا الجامع علي بعض العناصر الجديدة التي لاحظناها بعد في جامع يوسف داي ، و من بينها خاصة ، الصحون الثلاثة المحيطة ببيت الصلاة ، و المحراب المكسو جوفه بلوحات المرمر و كذلك بروز العناصر النباتية في تزويق قاعدة أطر الأبواب ، كما أن للمنبر هو الآخر نفس طابع المنابر الراجعة للفترة التركية ، و كذلك التربة المشابهة لتربة يوسف داي ، رغم وجود إذن هذه العناصر الجديدة ، فإن الطابع العام يدل علي بقاء التأثيرات المحلية قائمة الذات ، فاطر الأبواب و النوافذ التي تفتح علي بيت الصلاة تذكرنا بما يوجد في أغلب معالم مدينة تونس، خاصة منها الفقرات الرخامية المشعة و المتناوبة البيضاء و السوداء ، و طبيعة البناء نفسه ، و كذلك السقوف المتمثلة في أقبية متقاطعة ، كل هذا دليل علي أن التأثير التركي تمثل في بعض

الأجزاء فقط ، بينما بقي التأثير المحلي (خاصة طابع بيت الصلاة نفسه) متواجداً في النمط العام للجامع و في شكله و كذلك في زخارفه .

جامع محمد باي المرادي:-

ثالث الجوامع و هو ربما أهمها علي الإطلاق ، و رغم إطلاق العامة علي هذا الجامع اسم " جامع سيدي محرز " فهو لا ينتمي بأي صلة إلي هذا الولي ، فقد أسسه محمد باي المرادي في نهاية القرن 17م ، و أطلق عليه اسم " جامع سيدي محرز " لوقوعه أمام زاوية الولي[24] . و أهمية هذا الجامع متأتية من أنه انفرد بالنمط المتأثر بالجوامع التركية ، و هو ما لا نجده إلا في عدد قليل جداً من الجوامع في البلاد العربية. إلا أنه رغم هذا فإن جامع محمد باي ، في شكله العام وفي نواحيه الفنية ، يختلف في العديد من النقاط عن الجوامع التركية عكس جامع محمد علي بقلعة صلاح الدين المعتبر الجامع الوحيد في البلاد العربية الذي يشكل نسخة مطابقة الأصل لجوامع اسطنبول ، كجامع الأحمدية والسليمانية وبايازيت وغيرها ، المتأثرة مباشرة بآية صوفية ، والتي أبدع في تصميمها المعماري سنان ، أما جامع محمد باي فيبدو أنه تأثر في أغلب نواحيه المعمارية وفي هيكله الخارجي بجامع ياني فاليدي (yani valide) .

امتاز هذا الجامع عن غيره إذن ببعض الخاصيات أهمها اعتماد السقف المتكون من قباب متفاوتة الحجم ، علي أربع دعامات ضخمة ، لذلك لا نجد في بيت الصلاة الأعمدة التي اعتدنا وجودها في كل المساجد التونسية ، فلا تحتوي بيت الصلاة هذه علي البلاطات والمسبكات المعهودة .

تبدو بيت الصلاة من الخارج علي شكل هيكل مكعب تتدرج في فضائه المساحات الكروية الشكل ، فتبدو القبة الوسطي مرفوعة علي رقبته تتخللها ثماني نوافذ وتعلوها طاقية ذات شكل نصف كروي ، في حين أن القبيبات الأقل ارتفاعاً لا تتخللها إلا أربع نوافذ ، وتنتهي كلها برمانة من ثلاث عناصر كروية يعلوها هلال .

أول ما يجلب نظر الداخل إلي بيت الصلاة الفاتحة علي الأروقة الخارجية بتسعة أبواب، الدعامات الأربع الضخمة الحاملة للسقف والمتشابهة تقريباً [25] وتأخذ الدعامات مكاناً ممتازاً في وسط القاعة الفسيحة الأرجاء وتجمع بينهما عقود أربعة في شكل نصف دائرة تكون القاعدة المربعة التي تحمل القبة الوسطي الرئيسية . ويتم الانتقال من المربع إلي القسم الأوسط ، بواسطة عنصر المثلثات الكروية . أما بقية المساحة المسقوفة فتحتوي علي أربعة أنصاف قباب ، تساند القبة الرئيسية من جهاتها الأربع ، في حين أن قبيبات أربع أخرى تحتل زوايا القاعدة . وتستند كل من أنصاف القباب والقبيبات علي عقود معترضة تنطلق من الدعامات الوسطي لترتكز علي العضادات المتكئة علي الجدران .

تتقدم بيت الصلاة أروقة تتمادى في الزاويتين الشرقية والغربية مكونة سلسلة متواصلة من البائكات المرفوعة عن طريق أعمدة مرمرية تعلوها تيجان من الطراز التركي المتأثر بالنوع الكورنتي الجديد[26] ويتألف الرواق الجنوبي الغربي المساند لجدار القبلة من ثلاث عقود ، في حين

---

[24] -حسين خوخة : " ذيل بشائر الإيمان بفتوحات آل عثمان " تحقيق الطاهر المعموري – تونس 1976- ص95.

[25] - إلا أنه إذا أمعنا النظر جيداً في هندسة هذه الدعامات ، وفي كيفية تغطيتها بالألواح المرمرية ، فإننا نلاحظ بعض الفوارق الجزئية التي تبين نوعاً من الارتجال ، في إثبات هذه الحلية الرخامية ، وما احتوت عليه من لوحات خزفية .

[26] - يحتوي هذا التاج في كل من زواياه الأربع علي ورقة أقنتة ذات ثلاث شحمات وتنتهي في كل شحمة بشكل حلزوني بارز ، ويتوسط كل ورقتين حز يتوسطه بدوره (في غالب الأحيان) هلال . وأول من وصف هذا النمط بالطراز التركي جورج مارسيه ، لأنه أدخل إلي البلاد في أوائل الفتح العثماني ، لكن مأتاه غير معروف ، وقد صنعت الكثير من هذه التيجان بالبلاد الإيطالية ، وبدأ انتشارها انطلاقا من القرن XI هـ / XVII م

- **G. Marcais, Manuel d, art Musulman. TII, P.904.**
- **J. Revault , l , habitation tansies, P.273.s**

أن الرواق الجنوبي الشرقي يتكون من أربعة عقود [27] أما الواجهة الشمالية فهي تعتبر أهم الواجهات الثلاث ، إذ تشتمل علي رواق متكون من بائكة ذات سبعة عقود . والملاحظ أن المناطق العليا لكل الأروقة قد كسيت بغطاء من حجارة الهوارية الصفراء اللون ، بينما اختصت الزوايا بكسوة من حجارة الكذال الوردي اللون ، والذي يعتبر الرخام المحلي ، والمجلوب من منطقتين قريبتين من المدينة العتيقة ، أولاها بضاحية حمام الأنف والثانية بالوطن القبلي وبالتحديد قريب من القرية الأندلسية : سليمان .

أما بالنسبة إلي المئذنة فقد جرت العادة في مثل هذه الجوامع أن تتحلى بمئذنة شديدة الارتفاع ومثمنة الاضلاع غير أن هذا الجامع لم يساعده الحظ علي استكمال الصومعة إذ أن المنارة الحالية الموجودة في الركن الجنوبي الشرقي المشرفة علي سوق سيدي محرز ، لم تشيد خصيصاً للجامع الجديد ، بل هي من توابع المسجد الصغير القديم المعروف بمسجد الفلاري[28] وهي صومعة مربعة الشكل صغيرة القاعدة لا تتناسق من حيث حجمها وشكلها مع نمط الجامع وفخامة الهيكل ، والسبب في فقدان صومعة تتماشى والنمط المعماري الخاص بالجامع هو موت محمد باي قبل إتمام المئذنة . ثم تبعه أخوه رمضان باي الذي مات قبل اكتمال البناء ، وقد امتنع الخلف من إتمام الصومعة تشاؤماً بمصير السلف .

بالطبع أثري أقسام بيت الصلاة هي واجهة جدار القبلة ، التي تتألف من قسمات أفقية وقسمات عمودية . أما القسمات الأفقية فهي ثلاث : منطقة سفلي تحتوي علي إطارات رخامية وألواح القشاني ، ثم منطقة مغشاة بزخارف الجص المحفور والتي تدعي لدينا بـ " النقشة الحديدة " . وأخيراً ينتهي الجدار بقسم خال من الزخارف ، وفوق ذلك نجد القباب وأنصاف القباب [29] تعلو بيت الصلاة والتي كانت خالية من كل زخارف علي عكس ما هي عليه الآن .

تتشكل الزخارف السفلية من عدة مجموعات عمودية يتوسطها المحراب المكسو تماماً بالمرمر المتعدد الألوان ، الذي تحيط به من الجانبين نوافذ تعلوها كسوة من القشاني (أو مربعات الخزف) [30] المجلوب من مدينة أزنيك [31] والمتميز بنصاعة ألوانه وأناقة الأشكال الزخرفية المستوحاة في أغلبها من العناصر النباتية الطبيعية وهو الطراز الطاغي من حيث الاستعمال [32] وفي أطراف الجدار يتمادي نفس النظام مع استعمال زخارف خزفية من الطراز الأندلسي المتمثلة في أطباق فسيفساء التي تتخذ أشكالاً هندسية والتي تسيطر عليها الأطباق النجمية البسيطة التركيب .

الجدير بالذكر أن مجموع الدعامات والعضادات قد رتبت فيها ألواح من المرمر والقشاني والنقشة حديدة حسب نظام مشابه للذي لاحظناه بالنسبة لجدار القبلة مع تداخل بعض العناصر المميزة . أما بقية جدران القاعة فتتمادي في زخرفتها نفس المواد ونسب الترتيب الأفقي ، مع نظام خاص عمودي في المنطقة السفلي .

من بين أهم عناصر بيت الصلاة المنبر المبني بالحجارة والمزوق بالمرمر مثلما هو الحال بالنسبة إلي بعض الجوامع الأخرى[33] أما تيجان الأعمدة فكلها من النوع المسمي " بالتركي

---

[27] - تواصل استعمال نفس نمط العقود التي تعودت عليها البلاد التونسية منذ قرون عدة ، ولم يغير القدوم العثماني في نمط هذه العقود ، وهكذا بقيت مدينة تونس وفية للعقد الحدوي .

[28] -المؤسس سنة 1039هـ / 1629م حسب محمد بن الخوجة : " معالم التوحيد ". ص 114 . غير أننا نرجح أنه يرجع إلي الفترة الحفصية.

[29]- تمت أعمال النقوش الجصية خلال سنة 1980 ، عند ترميم المعلم .

[30] - يدعي القشاني بالبلاد التونسية : زليز ، وفي الأصل المصطلح هو " الزليج " إلا أن الجيم حرفت إلي الزاي نظراً لثقل نطقها

[31] - لا نجد هذا النمط من القشاني إلا في معلم آخر فقط ، وهو الجامع الجديد الذي كسيت جدران بيت الصلاة فيه بعدد من أنماط مربعات الخزف التركية والمتشابهة مع ما يوجد في جامع محمد باي .

[32] -تدخل في زخارف هذا القشاني العناصر النباتية كالزهور والأوراق القريبة جداً إلي الطبيعة ، ويدخل في ألوانها اللون الأحمر المشهورة به مدينة أزنيك وكذلك الأزرق والأخضر .

[33] - ذكرنا بعد منبر جامع يوسف داي وكذلك منبر جامع حمودة باشا ، هذا إضافة إلي المنبر المضاف بجامع القصبة .

" (22 تاجاً علي 25) وثلاثة من الطراز الحفصي . كما نلاحظ نوعاً ثالثاً يعرف بالأندلسي [34] وهو المستعمل في عمودي المحراب والمنبر .

بالنسبة إلي النقش علي الجص ، استعمل في هذا المعلم طراز أول وهو من تأثير أندلسي يتسم باستعمال العناصر الهندسية المتمثلة خاصة في أطباق النجوم . أما الطراز الثاني فهو من تأثير تركي ، ويتمثل في ألواح يطغي عليها الشكل المنفرد (خاصة المزهريات والنجوم وكوز الصنوبر...) .

الجامع الجديد :-

أما رابع الجوامع فهو الذي أمر ببنائه حسين بن علي تركي مؤسس الدولة الحسينية الذي تولي مقاليد الحكم سنة 1117 هـ / 1705 م [35] أسس هذا الباي ثلاث مدارس خلال الفترة الأولي لحكمه ، وآخر مدرسة أنجزها الباي حسين تم بناؤها سنة 1139 هـ / 1727 م ، قبل سنة فقط من اندلاع الحرب الأهلية التي انقسمت فيها البلاد بين حسينية وباشية [36] .

الجامع الجديد هو أول جامع شيد في الفترة الحسينية [37] وباستثناء هذا الجامع لا نملك مثالاً آخر لجامع استعمل صحنه كمدرسة ، لأنه في صورة بناء جامع ومدرسة في نفس المكان : كجامع ومدرسة التوفيق ثم الجامع اليوسفي والمدرسة ، وكذلك جامع و مدرسة صاحب الطابع ، فإن كلا من المعلمين يكون مستقلاً بذاته . وربما نتج هذا الاختيار عن ضيق المكان الذي تم استغلاله ، وهو علي تطور لمفهوم المدرسة ولتخطيطها ، فالمسجد الذي تحويه كل مدرسة كان يمثل المكان الذي وقع استغلاله للتدريس والصلاة بالنسبة إلي الطلبة والشيخ ، وهنا من الممكن جداً أن اضطر هؤلاء لاستعمال بيت صلاة الجامع .

تعلمنا المصادر أن الأشغال انطلقت سنة 1136 هـ / 1723 م ، وأن الباي حسين أزال ثلاث خمارات كانت توجد قرب المسجد المسدوري وبني عوضها دوراً للسكن . أما بقية المساحة فقد أنجز عليها الجامع والمدرسة وتربة أعدها لنفسه [38] وكتاباً وأول صلاة أقيمت بالجامع كانت ظهر يوم الأحد 14 شعبان 1139 هـ / 16 أفريل 1727 م [39] ويفيدنا الصغير بن يوسف أن الباي حسين أنفق أموالاً طائلة في بناء الجامع والمدرسة وأنه جلب أعمدة الرخام من إيطاليا بينما أتي بالزليج من اسطنبول .

مما يبرهن علي أهمية هذا المكان إحاطة العديد من المعالم الدينية والمدنية بهذه المجموعة التي توجد المدرسة في شمالها ، ويبدو أن العثمانيين اهتموا بهذا الحي اهتماماً خاصاً منذ بداية القرن XI هـ / XVII م ، فقد بني به الداي عثمان قصره الراجع إلي حوالي سنة 1605 م ...

---

[34] - يتميز هذا التاج بزخارف الخطوط المنعرجة ، ونجده في بعض المعالم الراجعة إلي الفترة الحفصية : كزاوية سيدي قاسم الجليزي وميضة السلطان ، كما استعمل في بداية القرن XI هـ / XVII م بدار عثمان داي .

[35] - تذكر المصادر أن أصله من جزيرة كريت (حسين خوجة : " ذيل بشائر أهل الإيمان " ص 115 ومحمد سعادة : قرة العين ..."مخطوط ورقة 5. ب ...بينما يري عزيز سامح في كتابه : " الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية " ، إن ذلك غير صحيح (ص 232 - 233) ؟

[36] - حول حياة هذا الباي وتأسيسه لعدد هام من المعالم وترميمه لعدد آخر راجع : حسين خوجة : نفس المصدر ص 115-153 السراج : " الحلل السندسية في الأخبار التونسية " ج 3 ص 55-76 محمد سعادة " قرة العين .." ورقة 92 أ و ب ابن أبي الضياف " اتحاف..." ج 2 ص 100 وما بعدها .

[37] -ابن الخوجة : " معالم التوحيد" ص 132- 133 .

[38] -لاحظنا بعده أن التربة أضيفت في جل الحالات إلي الجامع خلال الفترة العثمانية بمدينة تونس .

[39] - محمد سعادة : نفس المصدر ورقة 44 أ ، وحسين خوجة : نفس المصدر ،ص 161 . والصغير بن يوسف : " المشرع الملكي " ، ص 15.

أول ما يجلب الانتباه بالجامع ، الصومعة المثمنة التي تطل علي الصحن الشرقي للجامع وعلي سوق الصباغين من الخارج ، وتشد بيت الصلاة اهتمام المصلين نتيجة لثرائها الفني والزخرفي والمعماري ، وأول ما يلفت الانتباه هو التصميم المتسم بالطابع المحلي الذي تعودنا عليه في بيوت الصلاة المنشأة خلال الفترة الحفصية ، والتي استعملت ايضاً في الجوامع العثمانية بمدينة تونس كجامع يوسف داي وجامع حمودة باشا المرادي والمختلف عن تصميم جامع محمد باي ، وهو التخطيط المتمثل في قاعة مستطيلة الشكل ، عرضها أكثر من طولها فلها في هذا الجامع من الطول 17.20 م ولها من العرض 19.20 م ، لهذا فإن مساحة بيت الصلاة بالجامع الجديد متواضعة نسبياً .

قسمت بيت الصلاة بالجامع الجديد إلي خمسة أروقة لها نفس الأبعاد وهو ما نلاحظه أيضاً بالنسبة إلي المسكبات الأربع الموازية لجدار القبلة ، وهي تختلف في هذه الناحية عن تصميم الجامع الأعظم وغيره من الجوامع التي تتميز ببلاطة المحراب الأعرض من بقية البلاطات وكذلك الشأن بالنسبة إلي المسكبة الممتدة بطول جدار القبلة ، و التي تمثل أعرض المسكبات ، مما سمح بتكوين التخطيط المتعارف عليه بشكل Tاللاتينية وهو التصميم الأكثر انتشاراً بالبلاد التونسية .

يختلف سقف هذا الجامع عن أغلب الجوامع الأخرى بما فيها الجوامع المؤسسة خلال القرن XIهـ / XVII م ، فهو متكون في كل من طرفيه الأيمن والأيسر من أقبية طولية ، وتتوسطها بالرواق المواجه للمحراب أشكال مقبية ، وهي طريقة سيحصل اعتمادها فيما بعد في جامع صاحب الطابع الذي أثريت فيه هذه الأقبية الطولية بالنقوش الجصية . حملت هذه الأقبية الطولية بالجامع الجديد عن طريق عقود متقاطعة تستند بدورها إلي حدارات تتكون كل منها من حجارة متناوبة بيضاء وسوداء ، وهي محمولة علي أعمدة من الرخام الأبيض المستورد من كرارة ، وهي نفس المادة المستعملة في تيجانها ذات النمط الخليط الذي نلاحظ وجوده في صحن الجامع ، وهو يحتوي علي تأثيرين متداخلين : كورنتي من حيث عنصر الأوراق ، وإيواني من حيث الشكل الحلزوني ، وقد استمده الرومان من هذين الطرازين . بينما للأربعة أعمدة الحاملة لقبة المحراب تيجان من النمط المعروف " بالتركي " والذي نجده في الجوامع التي يطلق عليها " الجوامع الحنفية " لتأسيسها في الفترة العثمانية وتحبيسها علي هذا المذهب . وبعكس أغلب الجوامع الأخرى ، ونتيجة لضيق المساحة ، تمت إضافة طابق علوي في جزء من أقسام الجامع ، إذ خلي وسط بيت الصلاة من هذا القسم المضاف ، وهو مصنوع من الخشب، ذلك ما يسمح بمضاعفة طاقة استيعاب الجامع . ولم تحصل هذه الإضافة إلا خلال القرن الفارط ، فمن الواضح أن عدد سكان الحي ازداد بصفة جعلت الجامع يضيق بالمصلين ، وهو ما دفع إلي إضافة السدة وهي نفسها المستعملة من قبل الخوجات لتلاوة القرآن .

يتسم إذن تصميم بيت الصلاة هذه ، بتواصل الأنماط الموجودة بالبلاد منذ عصور الإسلام الأولي ، غير آن الإطار العام مختلف عن أغلب هذه الجوامع ، خاصة فيما يخص استعمال مربعات الخزف الكاسية للنصف الأسفل لجدار المعلم ، وهو ما نلاحظه أيضاً في جامع صاحب الطابع . لكن رغم تشابه هذه المربعات مع تلك التي لاحظناها بعد في جامع سيدي محرز فإنها تختلف عنها في أشكالها ، وهي تتسم في الجامع الجديد بوجود العديد من أنماط المربعات الخزفية ،وهي التي اشتهرت بها جوامع مدينة اسطنبول كجامع الأحمدية وجامع السليمانية وبايزيت الخ ....

وإن كان النصف الأسفل للجدران مكسواً بمربعات الخزف ، فإن النصف الأعلى مكسو بالنقوش الجصية ،وهي الأخرى متأثرة بالنمط التركي .

ورغم ثراء جميع جدران الجامع بشتي أنواع المربعات الخزفية والنقوش الجصية ، فإن واجهة جدار القبلة تجلب الانتباه بصفة خاصة ، فأول العناصر هو المنبر القار المبني بالحجارة ، وهو يتشابه في نمطه مع الخمسة منابر الأخرى الموجودة بالجوامع الحنفية .

أما المحراب فلا يختلف في نمطه عن بقية المحاريب المتواجدة انطلاقاً من القرن XIهـ / XVII م ، والتي تواصل العمل بها إلي اليوم ، فالنصف الأسفل لهذا المحراب مكسو بسبع لوحات

رخامية ، متناوبة سوداء وبيضاء ، ويعلو كل لوحة شكل معقود علي هيأة محراب. كما خرمت طاقية المحراب بالنقوش الجصية المتمثلة في أشكال هندسية متداخلة ، تتوسط كال منها أشكال عديدة متأثرة بالفن التركي .

آخر العناصر الهامة في بيت الصلاة هي قبة المحراب المحمولة علي أربعة أعمدة ذات تاج عمود " تركي" ، وهي التي لا تختلف في شكلها أو مضمونها عن أغلب القباب التي لاحظناها في بيوت الصلاة بالمساجد ومساجد المدارس وبعض الأضرحة [40] .

لكن مقارنة مع ختمة جامع الزيتونة أو جامع يوسف داي فإن الختمة القرآنية الموجودة بهذا الجامع تعد بسيطة في شكلها ومكوناتها .

جامع صاحب الطابع :-

آخر جامع هو جامع صاحب الطابع الذي يعد آخر المنشآت الدينية العظمي التي أسست خلال الفترة العثمانية بمدينة تونس ، فهو سابع الجوامع الحنفية وآخرها زمناً . وان كانت الجوامع الأخرى التي ذكرناها بعد قد أسست من قبل دايات وبايات ، فمؤسس هذا الجامع الوزير يوسف صاحب الطابع لا ينقص عن هؤلاء في الأهمية إذ لعب دوراً هاماً جداً في حياة البلاد كاد يضاهي به دور البايات أنفسهم [41] فقد بلغ أعلي المناصب وأصبح الساعد الأيمن لحمودة باشا ، باي الأيالة التونسية ، حتى وصل به الأمر إلي أن أوكلت إليه كل الأمور . وكان يعد هذا الوزير أثري شخص في الدولة ، وتأتت ثروته خاصة من التجارة مع البلاد الأوروبية ، وكذلك من استعمال سفنه العديدة في القرصنة ، كما لعب هذا الوزير دور البنوك ، إذ كان يقرض الكثير من وجهاء المملكة مع فائدة طائلة . كل هذا سمح له بأن يكون ثروة طائلة وازت جباية الدولة آنذاك [42] .

كان الابتداء في بناء الجامع يوم الأحد أول محرم 1223 هـ / 1808 م ، وأقيمت أول صلاة في الجامع يوم الجمعة 12 ربيع الأول 1229 هـ / 4 مارس 1814 م . وهي تعتبر من أحسن الفترات الحسينية ـ وبني صاحب الطابع مع الجامع مدرسته المشهورة باسمه . ويوجد الجامع بقرب من منزل المؤسس ، كما بني عدة منجزات أخرى في نفس الحي [43] وتوجد شمالي الجامع والمدرسة ، الزاوية البكرية ، وغربيها زاوية سيدي شيحة ، وجنوبيها زاوية وسبيل سيدي عبد السلام [44] وهو دليل علي أهمية الموقع .

باشر بناء الجامع وملحقاته [45] المهندس الحاج ساسي بن فريجة[46] ومن المؤكد أن بعض الأسري الأوروبيين ساهموا في البناء . فيفيدنا محمد بن الخوجة : " بوجود أساري كثيرين بدهاليز أبراج غار الملح ، ومعامل ترسخاتة حلق الوادي وسجون تونس " [47] لهذا أذن الباي حمودة باشا بجعل سبعة وعشرين أسيراً من أصيلي مدينة نابولي الواقعة جنوبي إيطاليا [48] في تصرف وزيره

---

[40] ـ تتكون القبة من ثلاثة أجزاء : أولها مربع الشكل وأثريت أقسامه بنقوش جصية دقيقة الصنع تشبه في شكلها خلايا النحل ، ويتم الانتقال إلي الطاقية عن طريق قسم ثان متكون من عقود زوايا تذكر بشكل المحارات . ونجد في الرقبة عميدات ثمانية (فقدت منها خمسة سيتم وضع أخرى مشابهة لها) بينما كسي أعلي القسم من القبة (الطاقية) بنقوش جصية متمثلة في نجمة مثمنة وسطي ، وينطلق من كل واحد من أجزائها فرع ، وهي تحصر فيما بينها مثلثات ثرية .

[41] ـ أحمد بن أبي الضياف : " اتحاف أهل الزمان ...." ج 7 ، ص 89 ـ 100 .

[42] ـ أحمد بن أبي الضياف : نفس المصدر ، ج7 ، ص 98 .

[43] ـ خصوصاً منها الحمام ، والذي يعتبر متأثر مباشرة بالنمط التركي والذي تم ترتيبه في سنة 1928 .

[44] ـ كما نجد قصر مصطفي خزندار علي مقربة من مسكن يوسف صاحب الطابع هذا إضافة إلي عدد من المعالم الهامة الأخري .

[45] ـ خاصة المدرسة الطابعية والكتاب.

[46] ـ وهو المدفون بقبة سيدي مصطفي الجزيري داخل الباب الجوفي للجامع .

[47] ـ محمد بن الخوجة : " معالم التوحيد " ص 140 .

[48] ـوهي ربما من بين الأسباب التي جعلت نمط الجامع متأثراً في بعض أجزائه بالفن والعمارة الإيطالية ، خاصة منها أطر الأبواب والنوافذ

لاستخدامهم في البناء . أما النقش علي الجص والزخرفة وغيرها من الأعمال الفنية ، فقد قام بها تونسيون [49] .

تذكر بعض المصادر أنه أتي بالرخام المستعمل في أطر الأبواب والنوافذ وفي صنع الأعمدة وتيجانها ، ولتبليط الأرضية من جنوب إيطاليا (حسب محمد بن الخوجة)[50] أما بن ابي الضياف فيذكر أن أبا محمد حسين المورالي : " وكان من رؤساء شقوف يوسف (صاحب الطابع) ، أنه خصه بنقل الرخام لجامعه من القرنة [51] إلا أنه من الواضح أن الرخام وارد من كرارة ، فقد كان الأيالة التونسية قد اشترت مقاطع رخام بها ، واعتمدت عليها في جل ما بني انطلاقاً من القرن XII هـ / XVIIIم والقرن XIIIهـ / XIXم . وقد جازي الوزير هذا القبطان بأن ملكه السفينة بجميع مدافعها وما يوجد عليها من آلات ، ويبدو أن حسونة المورالي نفسه هو الذي تبرع برخام قبر يوسف صاحب الطابع . كما إحتفظ هذا الأخير بكمية هامة من الرخام والأجر ومربعات الخزف وآلات الردم في مخازنه " ما يبني جامعاً آخر " [52] إلا أنها سرقت كلها بعد موته إلا أن حسنات صاحب الطابع لم تمنعه من أن يموت مقتولاً ، فبعد موت حمودة باشا اغتنم الفرصة أعداء الوزير أبو عبد الله محمد زروق ففتكوا به ، وذلك قبل أن يتم صومعة جامعه سنة 1230 هـ / 1814 م ، ولم يقدم أحد بعد المؤسس علي إتمامها ، ولم تكمل نهائياً إلا منذ حوالي ربع قرن . ودفن المؤسس بتربته في الجامع الذي تعلوه قبة بديعة الصنع تذكرنا في نمطها بقبة التربة الباشية ، خاصة في شكلها وفي حجمها وفي طريقة إثرائها بالنقشة حديدة .

يتم الصعود إلي الجامع عن طريق مدرج أول رئيسي يفتح علي ساحة الحلفاوين وعن طريق مدرج خلفي يذكرنا في نمطه بالمدرج الخلفي لجامع حمودة باشا ، هذا إضافة إلي مدرج ثالث قريباً من مدخل زاوية سيدي شيحة ، يشبه في نمطه مداخل زاوية سيدي عبد القادر وزاوية سيدي قاسم الجليزي وكذلك دار لصرم ... [53] .

لا يختلف في تصميمه وفي عناصره المعمارية عن بقية الجوامع المؤسسة خلال الفترة التي تلت انتصاب الاتراك العثمانيين بالبلاد . فللصحن شكلU اللاتينية ، وهو يحيط ببيت الصلاة من ثلاث جهات : الأقسام الشرقية والشمالية والغربية ، كما تظل بيت الصلاة هذه ثلاث أروقة أهمها علي الإطلاق ذلك الذي يوجد في الناحية الشمالية للصحن هو متكون من بائكة ذات تسعة عقود لها شكل حدوي ، وهي محمولة عن طريق أعمدة مجزعة . أما التيجان فهي من النمط التركي الذي انتشر آنذاك ، غير أن الصدفة المحلية للقسم الأسفل للتاج تعتبر من العناصر الجديدة بالنسبة إلي تيجان الأعمدة بصفة عامة ، كما تعلوها زئبقة طويلة تنتهي في الأعلى بهلال ، وإن كان الهلال من العناصر المضافة والمتميزة بالنسبة إلي تيجان هذا الجامع ، كما أن ورقة الأقنثة التي تنحدر انطلاقاً من الشكل الحلزوني الموجود في كل من الزوايا الأربع للتاج ، لها شكل قلما نعثر عليه في تيجان الأعمدة الأخرى .

نلاحظ في قصر دار حسين أن يوسف صاحب الطابع هو الذي أضاف فيه القسم الثاني للطابق العلوي بما فيها الصدفات البحرية التي تعلو النوافذ المحيطة بهذا الصحن ، ونجد في الجامع نفس نمط هذه الصدفات التي تعلو هي الأخرى النوافذ والأبواب الفاتحة علي بيت الصلاة والمظلة للأروقة ، لكن تلك الموجودة بالجامع تعتبر أثري بكثير وأجمل من الموجودة بدار حسين ، فقد زخرفت من الداخل بأشكال تضفي عليها جمالاً فتاناً .

كما أن المئذنة هي من نفس نمط المنارات الأخري التي نلاحظها في جوامع يوسف داي وحمودة باشا والجامع الجديد ، لكن يمكن اعتبار مئذنة صاحب الطابع أكثر رشاقة وأناقة وارتفاعاً من الأخريات. وبنفس المكان الذي أشرنا إليه في جامع محمد باي المرادي وجامع حمودة باشا

---

[49] - محمد بن الخوجة: نفس المرجع ، ص 140 .

[50] - محمد بن الخوجة : نفس المرجع .

[51] -ابن أبي الضياف : " اتحاف أهل الزمان ...." ج 7 ، ص 97 .

[52] - راجع ابن أبي لضياف : نفس المرجع ، ج 7 ، ص 97 .

[53] -وهي كلها معالم مرتبة موجودة داخل مدينة تونس العتيقة .

والجامع الجديد ، ونجد أيضاً محراباً خارجياً بجامع صاحب الطابع ، أي في الصحن الشرقي ، وهو يشبه في نمطه وفي زخارفه المحاريب الراجعة إلي النصف الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي وبداية القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي ، فإن كان القسم الأسفل مكسواً بلوحات من الخزف ذات التأثير المغربي ، فقد حليت الطاقية بنقوش جصية مقسمة إلي خمسة أجزاء متأثرة بالنمط الأندلسي والتركي علي حد سواء .

أما بيت الصلاة نفسها فهي تتكون من سبع مسكبات لها كلها نفس الأبعاد . وهي منفصلة عن بعضها عن طريق أروقة يبلغ عددها تسعة ، لها هي الأخري نفس الأبعاد . ويمتاز جامع صاحب الطابع بسقفه المتكون من أقبية طولية يبلغ عددها سبعة ، لها اتجاه شرق ـ غرب ويحدها يمنة ويسرة قبوان طوليان آخران لكل منهما اتجاه شمال ـ جنوب ، وهي كلها مزخرفة بنقوش جصية بديعة ، إلا أننا نلاحظ اختلافاً في أنماط الزخارف بين القبو والآخر ، وتمثل في مجملها تأثيرات تركية ، وهي تتكون من مزهريات وغصون وأوراق وزهور ، ثم نجد في البعض الآخر أطباق نجوم صغيرة تتوسط مربعات متكونة من أشكال هندسية الخ ...مما يضفي علي هذه السقوف الكثير من الجمال والبهجة ، وهي تذكرنا في شكلها وفي نمط نقوشها بقبو طولي موجود بإحدى قاعات تربة البايات ، فهي ترجع الأخري إلي بداية القرن الماضي ، هذا إضافة إلي القباب السبع ، توجد أربع منها بزوايا بيت الصلاة ، وتتشابه كل اثنتين في زخارفها. إذ توجد بالناحية الجنوبية (شرق المحراب وغربه) قبتان لهما نفس الشكل ، فقاعدة كل قبة مربعة الشكل ، ولها في زواياها الأربع عقد زاوية محلي هو الآخر بنقوش جصية ، ويتم الانتقال إلي الطاقية عن طريق رقبة مستديرة الشكل . أما القسم الأخير لكل من هذين القبتين فقد حلي في وسطه عن طريق نجمة تنطلق نحو أطباق نجمية ذات تأثير تركي ، وإن كان للقبتين الأخريين الموجودتين بالزاوية الشمالية والشمالية الغربية نفس شكل القبتان الأوليين، فتختلف زخارف طاقيتهما عن القبتين الأخريين ، فلهذه نجمة مثمنة تتفرع عنها ثمانية ضلوع ، تتوسط كل منها مزهرية . كما توجد قبة خامسة تواجه قبة المحراب من الناحية الشمالية وهي تعلو الباب الأوسط الذي يفتح علي بيت الصلاة من ناحيتها الشمالية ، وبالطبع فإن وجود أربع قباب بزوايا بيت الصلاة ، إضافة إلي قبة المحراب وقبتين أخريين ، يشكل نمطاً فريداً من نوعه بمدينة تونس .

أما الأعمدة المجزعة والتيجان التي تعلوها فلها نفس الشكل الذي لاحظناه بالنسبة إلي الأعمدة الحاملة للأروقة الخارجية . كما أن العقود لها نفس شكل عقود بائكات الصحن ، وهي تشابه في نمطها الأعمدة الموجودة بدار البارون درلنجي وكذلك أعمدة دار باش حامبة ....

يبان ثراء الجامع في الواجهات الداخلية لبيت الصلاة التي كسيت بلوحات الرخام المستورد من كرارة والتي تعلوها مربعات الخزف ،وينتهي الجدار في قسمه الأعلى بنقوش جصية بديعة الصنع. أما جدار القبلة فيتوسطه المحراب ، وهو يعتبر تطور بالنسبة إلي محاريب الجوامع الأخرى الراجعة إلي القرن XIهـ / XVIIم و XII هـ / XVIIIم . فجوف المحراب مكسو بلوحات رخام تذكرنا بتلك التي نجدها في تربة البايات وكذلك بدار البارون درلنجي وبقصر باردو ...وهو نفس الرخام الذي كسيت به طاقية المحراب[54] ، كما يستند العقد الحدوي للمحراب علي عمودين مجزعين لهما لون أسود .

تعتبر قبة المحراب هي الأخري فريدة في نوعها ، إذ كسيت كل أقسامها السفلي انطلاقا من المربع ، ثم الرقبة التي تتلوه والتي تتخذ شكلاً مثمناً ، بلوحات من المرمر التي يحد كل واحد منها إفريز من الرخام الأسود . أما الطاقية فكسيت بعشرة صفوف أفقية من النقوش الجصية المخرمة التي تذكر بخلية النحل ، وهو نمط نادر لا في تونس فقط بل وحتى خارجها .

كما أن المنبر يشبه في نمطه بقية المنابر التي لاحظناها في الجوامع المؤسسة خلال القرنين الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي والثاني عشر هجري / الثامن عشر ميلادي

[54] ـ صنع هذا المرمر الأبيض من قطعة واحدة ، أما الأقسام المجوفة فقد وضع داخلها مستطيلات من الرخام الملون المكون من قطع صغيرة الحجم ويبلغ سمكها سنتم واحد .

، لكن تفنن الصانع هنا في تزويقه بالرخام ، مما جعل منه أجمل المنابر القارة والمبنية بالبلاد التونسية .

للجامع إذن طابع خاص به ، فهو من أكثر الجوامع تأثراً بالنمط التركي ، فرغم وجود العناصر المستوحاة من الطابع الإيطالي والمحلي ، فإن الشكل العام برهن علي أن الفن والعمارة التركية كانا لهما تواجد متميز في بداية القرن الماضي .

هكذا نري أن الحضور العثماني في الخمسة جوامع هذه كان متميزاً ، فرغم مواصلة اعتماد الأنماط المحلية في بعض عناصرها ، اتجه البناة والمؤسسون إلي الأخذ عن الفن والعمارة التركية . رغم تساؤلات العديد من المؤرخين والمستشرقين ان كان من الممكن التأكيد علي وجود فن ومعمار عثماني بالبلاد التونسية ، وبمدينة تونس بالذات، كما أن البعض منهم حاول تقليل شأن هذا الحضور أو مسحه تماماً ، لكن جامع محمد باي المرادي ، وكذلك تربة الباي تفيد هذه الأراء . كما أن الجوامع الأخرى تعتبر دليلا قاطعاً علي الحضور العثماني .

أولاً وبالذات عنصر الصحن ذي النمط الجديد الذي يحيط ببيت الصلاة من ثلاث جهات (الشرق الغرب الشمال) والذي عوض الصحن المستطيل الشكل .

2- المنبر المبني والمثري بلوحات المرمر .

3- المحراب المغشي بالمرمر.

4-ظهور تيجان أعمدة جديدة في بداية الفترة العثمانية ، والتي ليس لها أي علاقة بالتأثيرات التركية ، لكن نتيجة لظهورها خلال تلك الفترة ، أصبح يطلق عليها : " تاج العمود التركي " .

5- وجود محراب بالصحن الشرقي لكل جامع ، وهو مالا نجده قبل وصول الأتراك العثمانيين.

6- من بين أهم العناصر الجديدة ، المئذنة المثمنة الشكل ، فهذا النمط من المآذن أدخله يوسف داي ، وتبناه فيما بعد الدايات المراديين والبايات الحسينيين ، أما الصومعة الموحدية الشكل ، فاستغني عنها لفائدة المآذن الجديدة .

7- تربة المؤسس التي انطلقت مع جامع يوسف داي .

8-البعض من هذه الجوامع : خاصة منها الجامع الأول " يوسف داي " والأخير ،جامع صاحب الطابع ، حصل إلحاقها بمجمع اجتماعي واقتصادي وثقافي .

هذه البعض من نماذج التأثيرات العثمانية بمدينة تونس ، إلا أنها لا تمثل إلا قسماً من هذا الحضور الثري ، الذي نشاهده في العديد من المعالم الأخرى ، خاصة منها الترب والقصور وغيرها . غير أن هذه الجوامع الخمسة حافظت علي معمارها وعلي عناصرها الأولي ، بينما فقدت جل المعالم الأخري الراجعة إلي نفس الفترة وخاصة منها القصور والدور الفخمة والمقامات بطابعها الأول والعديد من عناصرها المتميزة وهذا نتيجة لعدة عوامل من بينها خاصة تقسيمها وتجزئتها وإعادة بنائها .